الحبُّ البنويّ

رواية تاريخيَّة عرَّبها عن الاسبانيَّة احد الآباء اليسوعيين

١ الاسر

كان على تخوم الاندلس على سيف نهر الوادي الكبير (Guadalquivir) حصنٌ حصينٌ شُيِّد في القرن الاوَّل او الثاني من القرون المتوسطة . حصنٌ تُنبئك مناعتُهُ عن تاريخ اسبانية في تلك الاحقاب . احقاب الحروب الهائلة والوقائع المخيفة التي دارت رحاها بين الاسبان والمغاربة . فلو كان في استطاعة تلك الاطلال ان تهبَّ من رقدتها وتصحو من سُباتها لأماطت القناع عن غرائب عجائب وردَّدت على الاسماع مآثر كماة الابطال وجرأة فحول الحرب وقروبها . واوقفت على حسرات وزفرات وغصص وكآبات تفتِّت الاكباد كانت تتصاعد من صدور اولئك الفرسان . وأنبأت كم من اسير عاش حزيناً ومات كئيباً دون ان يرجو حلَّ عقاله ويأمل فكَّ اغلاله وراء اسوار ذلك الحرز الحريز

هذا وما كاد العرب يفتحون بلاد المغرب (موريتانيا القديمة) الَّا وطمحوا ببصرهم نحو اسبانية ولم تَبِل بهم عنها مخيلةُ امل . فاخذوا يفكرون في طريقة تبلِّغهم الى مبتغاهم ولبثوا عدة سنين يجثون لنواظرهم تلك البلاد الخصبة التي تفتن الالباب بحسنها وجمالها . الى ان وطَّأ لهم هذه العقبة الكونت يوليان فخان وطنه وأنالهم تلك البغية

فهذا كان امتعض من تبوّء مولاه الملك رودريك او رذريق سدَّة الملك فأضمر الشرَّ لسيده وشفاء لغليله منهُ دعا المغاربة الى الاندلس ودلَّهم على عورة البلاد

ولما كانت سنة ٧١١ زحف طارق بن زياد مولى موسى بن نصير قائد المغاربة بجيله ورجله على اسبانية . فجاز بسرعة مضيقَ قادس المعروف بباب الزقاق . واستولى على الجبل الذي اشتهر منذ ذاك باسمه جبل طارق (Gibraltar) او جبل الفتوح وما لبث ان التقى برودريك ملك اسبانية فناشبهُ القتال فاشتبك الفريقان وتلاحم

الابطال وتبارز الفرسان فكانت حرب عبوس دُعيت بوقعة شريش جرَّت ذيول الدمار على الاسبان وفرَّقت شملهم شذر مَذر. فيها قُتل الملك وعددٌ من ابطاله. وكُبّل عدد آخر من صناديده بقيود الاسر — ثم فتح العرب اشبيلية وقرطبة وسائر الاندلس — وكان بين الاسرى الكماة بطلٌ مغوار وامير مُعمَّم يُدعى « انطونيو راميراس ». فهذا الفارس المغوار برز في القتال وصرع وحده عشرين مغربياً حتى سقط جريحاً في حومة الوغى وحسامهُ الابتر في يده. ولما رأى ان الاعداء احدقوا به من كل جانب كما يحدق السوار بالمعصم وانَّ لا منقذ له ولا مناص من هذا المأزق استسلم

اما القائد طارق فدُهش من بسالة راميراس وبُهت من ثبات جنانه في معركة الوغى فأبقى عليه. لكنهُ جعل لفدائه من الأسر مبلغاً عظيماً من المال موازياً لشجاعته. امَّا الاسباني الاسير فلمَّا رأى ان ما يطلبه القائد يذهب بثروته كلها ويزول الى خراب بيته آثر الاسر المؤبد ورضي بنصيبه. فامر اذ ذاك طارق ان يقاد راميراس ويُحمى بين عداد اسرى حصن الوادي الكبير

٢ المروءة

كان لراميراس ثلاثة بنين تتلألأ على محيَّاهم مخايل النجابة وتلوح سمات الشجاعة. بل كانوا اشبه بابيهم من حيث البسالة والجرأة « ومَنْ اشبه اباهُ فما ظلم »

كان ابنه البكر يُدعى دياغو وكان لهُ من العمر سبع عشرة سنة. فهذا لمَّا بلغهُ ان اباهُ أُخذ اسيرًا وعرف المكان الذي حُبسَ فيه لم يصبر على تجرُّع هذه الغصَّة بل جمع فئةً من اصحابه الأمناء الابطال الذين كانوا شهدوا وقعة « شريش » الشهيرة وسار بهم الى حيث كان ابوه معتقلًا. فمرَّ هؤلاء الصناديد مرَّ السحاب بين صفوف الاعداء المتفرّقين في الاندلس مختلسين فرصة غفلتهم ولم يزالوا يواصلون سيرهم الى ان انتهوا الى الحصن او كادوا. وكان راميراس قد صعد على سطح الصرح يسرّح النظر تفريجاً لكربته واذا به قد ابصر عن بعدٍ غبارًا علا وعجاجاً قد ملأ الجوَّ والفلا وما لبث ان سمع عَدْوَ خيل. فحدَّثتهُ نفسهُ ان الوافدين هم من ابناء جلدته فاخذ يفكر فيما حدا بهم الى هذا المكان وفيما يقصدون. ثم قال: « ما ادراني ان يكون ولدي في صحبتهم » — اما الشاب دياغو ومن معه فما عشوا ان انتهوا الى اسفل متاريس

الدرج الى الباب السري . فوثبوا عليه وثبة الاسود وفي ايديهم الفؤوس الحربية يريدون كسره بل تحطيمه . فذهب سعيهم ادراج الرياح وراح تعبهم سدى اذ ان ذلك الباب كان مصفحاً بالحديد . اما المغاربة الذين كانوا يربون على المائة فاذ احسوا بعدوهم من داخل القلعة بادروا الى مقاتلتهم فاخذوا يرمونهم بالحجارة ويصوبون عليهم سهامهم ثم حملوا عليهم من كل صوب وناحية واحاطوا بهم احاطة الهالة بالقمر . واستمرت وقتئذ بين الطرفين معركة هائلة انجلت عن كسرة هؤلاء الصناديد . اما دياغو البطل فكان قد أصيب بضربة حسام صرعته فافقدته الرشد ولما افاق من غشيته قبضوا عليه واعتقلوه في القلعة مع ابيه

٣ الحيلة

قبل ان يستفيض الخبر عن اعتقال دياغو كان فرنسيسكو اخوه البالغ الخامسة عشرة من عمره . احس في نفسه عن اخلاق مسعى اخيه . بل كأنّ مناجياً كان يناجيه ان الاعداء قد انزلت الوبال في دياغو ومن معه من الابطال . فهذه النكبة لم تكن تثبط عزيمته وتقصر من نشاطه . بل كان يُخيّل لناظريه ان من الواجب عليه ان يفكّ اغلال الاسيرين ويخلّص فريستين من اهوال رق العبودية . ولما كان فتاً سنّه لا يسمح له ان يبدي شجاعة كبيرة ولا كان مستوثقاً من شدة ذراعيه ركن الى الحيلة ضارباً اخماساً لاسداس . فتزيّا بزي مغربي وملأ حزمة ذهباً وسار توّاً الى القلعة — ولم يكد فرنسيسكو يقرب من اسوار القلعة الّا واخذ ينغّم لحن بلاد الاندلس بصوت شجي يشنّف الآذان وانغام مطربة تُسكر الالباب فللحال صرخ راميراس وابنهُ دياغو : لا شك ان فرنسيسكو مقبلٌ ولا مريّة ان هذا الصوت هو صوته . ثم جعلا يستجيران الله سبحانه من اعدائه الالداء لكي يسدل عليه ستر رحمته ويُسبل دونه الحجاب ويحفظهُ سالماً من كل ضرّ ويصونهُ بعنايته القديرة من كل آفة وشرّ — ثم اخذا يفكّران فيما اغراهُ على القدوم الى هذا المكان الخطر وفيما يرمي اليه ويعلّق امله عليه

فبفضل هذا الزي أُتيح لفرنسيسكو الولوج الى داخل القلعة فحاول آنئذٍ ان يخدع الحارس ويستميلهُ بواسطة الذهب فذهب امله هدراً وسعيهُ طلّا . ولما كان هذا

الحارس داهيةً في الخبث اخذ مال فرنسيسكو وقتل دونه باب القلعة وجعله في عداد الاسرى فصار مع ابيهِ وشقيقهِ ثالثة الأثافي

٤ عودة الله

بقي للبطل الاسير رامير اس ولدٌ ثالث يُدعى مثل ابيهِ انطونيو لكنه حديث السنّ لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره . تُرى ماذا يستطيع ان يفعل ولدٌ في هذا السنّ ! لكن ما لا تقدر عليهِ القوى البشرية تقدر عليه المحبّة البنويّة المقرونة بالتقوى وخوف الله فانها تُريك عجائب غرائب

واذا طلبتَ من الموانح حاجةً فادعُ الالهَ وأحسنِ الاعمالا

كان قد مضى على ذهاب فرنسيسكو شهر ولم يكن انطونيو يعلم ما حلَّ باخيهِ بل دار في ذهنهِ ان اخاه اصبح اسيرًا ونال حظّ والده واخيهِ البكر . فحدّثتهُ نفسهُ انَّ دَوْره قد حان وان نجاة والدهِ منوطٌ بما يوتيهِ من حسن التدبير واتقان العمل . فتروّى في الامر مليًا الى ان ادّت بهِ فكرتهُ الوقّادة الى استنباط حيلة هي في بابها نادرة المثال

وذلك انهُ كان على جانب من التقى والتدين فارتأى قبل الإقدام على العمل واقتحام الاهوال ان يذهب اولًا الى المقبرة الى ضريح والدتهِ فهناك جثا راكعاً يستجير الله بإخبات وخشوع طالباً منهُ عزّ اسمهُ العون والقدرة والنجاح في امر خطير يتطلب جرأة غير عادية . ولما تمّ صلاته رفع رأسهُ فاذا بجُعَل يتصعد على جانب صليب القبر ساحباً وراءهُ لُعاباً طويلًا . فلما نظر انطونيو هذا اللعاب تحقق ان صلاته قد استُجيبت فقام على الفور وتزيأ بزيّ راعٍ وتوجّهُ توًا الى القلعة حيث كان ابوه واخواه

فلما انتهى الى اسفل الحصن اذا بالحرَسة واقفون لكنهم لم يكترثوا بهِ ولا همَّهم حضورهُ . بل تركوهُ وشأنهُ ينام في حمارّة القيظ بكل راحة وسكون — اما انطونيو فكان يتناوم حتى رأى نفسهُ بأمن من نظر الحرسة فأخرج اذ ذاك من جيبهِ كبّة غزل ملفوفاً عليها خيط كتّان رقيق للغاية ثم انتقى جُعَلًا كبيرًا — وهذا النوع يكثر في البلدان الحارّة — ثم مكّن جناحي الجُعل بقليل من القطران وربط حول جسم الحشرة احد اطراف خيط كبّتهِ

كان راميراس وولداه لاحظوا ذاك الراعي وهو يقترب من اسفل القلعة . فاخذوا يتتبعونهُ ويراقبون حركاتهِ الى ان وضع الجُعَل على صدر الحائط لكنَّهم لم يعرفوهُ تماماً حتى رفع رأسهُ الى فوق فحينئذٍ ارتعدت فرائصهم فرَقاً وهتفوا ! ابني : اخونا ! وودُّوا لو لم يكن طوَّح بنفسهِ في المخاطر

وكانت الدويبة في اثناء ذلك تصعد ساحبةً الخيط وراءها وربَّما حاولت المرَّة بعد الاخرى التملُّص من وثاقها — اما انطونيو فاستأنف نومهُ المتظاهر وهو مضطرب البال قلق الافكار . تتبع عيناهُ خفيةً الخيط الذي كان علَّق عليهِ كل آماله . فكان يخاطب نفسهُ قائلًا : . . أيصل هذا الجعل الى فوق الى حيث ابي راميراس واخواي . . . أيقفهُ الحرسُ حيلتي المتزَّهة عن كل شر ؟ . . . ربي عليك توكَّلت خذ بيدي . انزل عبدك المسكين من هذا المأزق : انت السميع المجيب :

وفي اثناء ذلك كان العَسس يطوفون على مألوف عادتهم حول القلعة لكنَّهم لم يروا احدًا سوى هذا الولد الراعي المسكين فما اعاروهُ بالًا ولا اكترثوا بهِ بل عدلوا ايضاً الى ظلّ شجرة ليتَّقوا من حمارَّة القيظ

ان هذا المشهد الغريب قد ادهش راميراس اي اندهاش . فاخذ يتبع برغبةٍ سير الجعل حتى اذا وصل الى فوق جذبه اليه فرأى خيطاً دقيقاً فربطهُ . وأدرك ما قصدهُ ابنهُ انطونيو . فلمَّا كان المساء وغاب الحرس سحب الخيط فما لبث ان رأى خيطاً آخر اضخم يتبع الاول فسحبهُ فحبلًا وفي طرفهِ النطاق الذي كان انطونيو متمنطقاً بهِ على زي محزم

ولما ارخى الليل رواقه اخذ راميراس الحبل وأحكم رَبْطهُ في قمة القلعة فنزل فرنسيسكو الاول . ثم تبعه دياغو ثم راميراس وكان انطونيو يرقب حركاتهم وقلبهُ يتنازعهُ عاملا الخوف والرجاء . الى ان بلغوا الحضيض فاسرع الاب السعيد مع اولاده الثلاثة وقبَّلوا مخلِّصهم وعيونهم تذرف الدموع فرحاً ثمَّ لاذوا بالفرار وكان انطونيو قد اعدَّ لهم في مزرعة قريبة جياداً مطهَّمة — فما مضى على الاب واولادهِ ثلاثة ايام الَّا وكانوا في المقبرة جاثين على ضريح امهم قرينتهِ بازاء الصليب الذي كان انطونيو قبَّل اقدامهُ قبل ان يحاول نجاة والدهِ واخويه طالباً العون والقدرة والنجاح — فهناك قدَّموا الشكر للعزة الالهية على نجاتهم من وثاق الاسر وعادوا الى دارهم سالمين